دور قبيلة بجيلة في التاريخ العربي الإسلامي في العصر الأموي

أ.د.جاسم صكبان علي*

كانت قبيلة بجيلة حاقدة على الخلافة الإسلامية في المدينة ودمشق؛ حقدت على خلافة المدينة لأنها حُرمت من امتياز ربع السواد الذي أعطي لها نظير اشتراكها بتحرير العراق. وحقدت على الأمويين لأنهم استأثروا بالسواد في أيام عثمان (رض) دون أن يكون لهم دور ذا قيمة بتحريره؛ ولذا فإنهم مالوا إلى الحركات المعارضة ضد عثمان (رض) في المدينة وضد الأمويين في دمشق؛ فقد روى الطبري أن بعض البجليين انضموا إلى الحزب العلوي الذي كان يقوده حُجر بن عدي، فقد كان رفاعة بن شداد البجلي من أنصار حُجر بن عدي. وعندما ألقي القبض على حُجر وحُبس لم يكن لزياد بن أبيه عمل إلا طلب رؤساء أصحاب حجر. فخرج رفاعة بن شداد البجلي وعمرو بن الحمق هاربين من الكوفة حتى نزلا المدائن ثم ارتحلا حتى أتيا أرض الموصل. فأتيا جبلاً فكمنا فيه. وبلغ عامل ذلك الرستاق أن رجلين قد مكنا في جانب الجبل فاستنكر شأنهما – وهو رجل من همدان يقال له عبد الله بن أبي بلتعة– فسار إليهما في الخيل نحو الجبل ومعه أهل البلد، فلما انتهيا إليهما خرجا. فأما عمر بن الحمق فكان مريضاً فلم يكن عنده امتناع، وأما رفاعة بن شداد –وكان شاباً قوياً- فوثب على فرس له جواد فقال له أقاتل عنك؟ قال وما ينفعني أن تقاتل؟ انج بنفسك إن استطعت فحمل عليهم، فأفرجوا له، فخرج تنفر به فرسه وخرجت الخيل في طلبه –وكان رامياً- فأخذ لا يلحقه فارس إلا رماه، فجرحه أو عقره، فانصرفوا عنه. وأخذ عمرو بن الحمق فطعن تسع طعنات فمات في الأولى منهن أو الثانية[١].

وكان جرير بن عبد الله البجلي وابن الأشعث وآخرون قد توسطوا لدى زياد بن أبيه وكلموه وطلبوا إليه أن يؤمن حجر بن عدي أحد زعماء العلويين حتى يبعث به إلى معاوية فيرى فيه رأيه ففعل[٢]. ويبدو أن دخول جرير في هذه الوساطة كان تحت تأثير ابن الأشعث الكندي وهو من اليمن، فهو إذن وجرير أبناء عم، فلا غرابة في أن يستغل ابن الأشعث صداقة جرير للخليفة الأموي ليقدم خدمة إلى حُجر بن عدي الكندي الذي تجمعه بابن الأشعث قبيلة كندة اليمانية وتجمعهم بجرير نسبة اليمن.

وعندما أرسل حُجر بن عدي وأنصاره إلى معاوية، وبعث رسالة فيها شهود ضدهم، استشار معاوية أهل الشام في شأنهم، أجاب يزيد بن أسد البجلي (أن يفرقهم في قرى الشام ويكفيكهم طواغيتها)[٣] ويبدو أنه أشار عليه بذلك بعد أن ضمن حياة بجليين كانا معهم، وكان جرير بن عبد الله قد كتب كتاباً إلى معاوية يتوسّل إليه أن يعفو عن البجليين، ومدحهما قائلاً: (إنهما من قومي من أهل الجماعة والرأي الحسن سعى بهما ساعٍ ضنين إلى زياد فبعث بهما في النفر الكوفيين الذين وجهه بهما زياد إلى أمير المؤمنين وهما مما لا يحدث حدثاً في الإسلام ولا بغياً على الخليفة)[٤]. فلما سألهما يزيد بن عبد الله البجلي، ذكر معاوية كتاب جرير، فقال قد كتب ابن عمك جرير فيهما مُحسناً عليهما الثناء و(هو أهل أن يصدق قوله وتقبل نصيحته وقد سألني ابن عمك فهما لك)[٥]. وكان هذان البجليين: عاصم بن عوف البجلي وورقاء بن سُمّي البجلي[٦].

لا شك في أن ذلك يشير إلى قوة الترابط القبلي على الرغم من اختلاف الآراء السياسية: فقد قال يزيد بن أسد البجلي مخاطباً معاوية (يا أمير المؤمنين هب لي ابني عمي)[٧] على الرغم من أنهما من أنصار العلويين في حين يزيد بن أسد البجلي من أشد المناصرين لمعاوية[٨].

وعندما ثار الحسين بن علي (ع) ورفض مبايعة يزيد بن معاوية، كان رفاعة بن شداد البجلي من جملة الذين كتبوا إلى الحسين (ع) يدعوه للقدوم إلى العراق[٩]. وعند مسير الحسين بن علي (ع) إلى العراق جمعه الطريق بزهير بن القين من بني عمرو بن يشكر من بجيلة. وكان زهير بن القين عثمانياً. كان يساير الحسين. وقد روى أحد الذين كانوا في ركب زهير بن القين وهو من بني فزارة، كيف كانوا يسايرون ركب الحسين (ع) وكان ذلك أبغض شيء إليهم لأنهم لم يكونوا راغبين في تسبب المزيد من المشاكل للحسين (ع) وذكر أنهم نزلوا مكاناً لم يجدوا بداً من أن ينزلوا معه فيه، قال: فنزل الحسين (ع) في جانب ونزلنا في جانب فبينا نحن جلس نتغدى من طعام لنا إذ أقبل رسول الحسين (ع) حتى سلم ثم دخل فقال يا زهير بن القين إن أبا عبد الله الحسين بن علي (ع) بعثني إليك لتأتيه[١٠]. فشق على زهير ثم أجابه على كره بتأثير وإلحاح زوجته، فلما عاد من عنده نقل ثقله إلى ثقل الحسين (ع) ثم قال لامرأته أنتِ طالق، الحقي بأهلك فإني لا أحب أن يصيبك بسببي إلا خير. ثم قال لأصحابه من أحب منكم أن يتبعني وإلا فإنه آخر العهد وسأحدثكم حديثاً: (غزونا بلنجر ففتح علينا وأصبنا غنائم ففرحنا، وكان معنا سلمان الفارسي، فقال لنا إذا أدركتم شباب آل محمد فكونوا أشد فرحاً بقتالكم معهم بما أصبتم اليوم من الغنائم)[١١] أما أنا فأستودعكم الله، ثم انضم إلى جيش الحسين بن علي (ع).

* جامعة بغداد – كلية التربية للبنات – قسم التاريخ

ولأجل أن يعزز الحسين (ع) الروح المعنوية لدى جنده قام فقال كلاماً فيه حكمة وعظة وتحريض على الجهاد فقام زهير بن القين البجلي وقال لأصحابه (تتكلمون أم أتكلم؟ قالوا: لا بل تكلم. قال: قد سمعنا هداك يا ابن رسول الله مقالتك والله لو كانت الدنيا لنا باقية وكنا فيها مخلدين إلا أن فراقها في نصرك ومواساتك لآثرنا الخروج معك على الإقامة فيها... فدعا له الحسين ثم قال له خيراً)[١٢].

وعندما وصل الحسين (ع) إلى نينوى وجاءت الأوامر إلى الحر يأمره فيها عبيد الله بن زياد أن يجعجع بجيشه الحسين (ع) قال زهير بن القين البجلي للحسين (يا ابن رسول الله إن قتال هؤلاء أهون من قتال من يأتينا بعدهم، فلعمري ليأتينا من بعد ما ترى ما لا قبل لنا به، فقال الحسين (ع) ما كنت لأبدأهم بالقتال، فقال له زهير: سر بنا إلى هذه القرية حتى تنزلها فإنها حصينة وهي على شاطئ الفرات فإن منعونا قاتلناهم فقتالهم أهون علينا من قتال من يجيء بعدهم. فقال له الحسين (ع) وأية قرية هي؟ قال هي العَقر، فقال الحسين الله إني أعوذ بك من العَقر ثم نزل وذلك بعد الخميس وهو اليوم الثاني من المحرم سنة إحدى وستين)[١٣]. وكان زهير عند ظنه، ففي الغد قدم عليهم عمر بن سعد بن أبي وقاص من الكوفة في أربعة آلاف مقاتل.

وفي التاسع من محرم وبعد وصول الحسين (ع) إلى الكوفة وعندما هجمت جنود عمر بن سعد على الحسين (ع) تلقاهم العباس بن علي (ع) في نحو من عشرين فارساً فيهم زهير بن القين البجلي فسألهم، فقالوا جاء أمر الأمير بكذا وكذا. قال لا تعجلوا حتى أرجع إلى أبي عبد الله فأعرض عليه ما ذكرتم[١٤].

وتكلم زهير بن القين مع وفد عزرة بن قيس وقال له: (يا عزرة إن الله قد زكاها وهداها –عترة الرسول وأهل بيته- فاتق الله يا عزرة فإني لك من الناصحين... قال يا زهير ما كنت عندنا من شيعة أهل هذا البيت، إنما كنت عثمانياً؟ قال: أفلست تستدل بموقفي هذا إني منهم أما والله ما كتبت إليه قط ولا أرسلت إليه رسولاً قط ولا وعدته نصرتي قط ولكن الطريق جمع بيني وبينه فلما رأيته ذكرت به رسول الله (ص) ومكانه منه وعرفت ما يقدم عليه من عدوه وحزبكم فرأيت أن أنصره وأن أكون من حزبه وأن أجعل نفسي دون نفسه حفاظاً لما ضيعتم من حق الله وحق رسول الله عليه السلام)[١٥].

عندما ضاق الحال بالحسين (ع) طلب من أنصاره القلة أن يأخذ كل رجل منهم بيد رجل من أهل بيته ويتفرقوا في سوادهم ومدائنهم حتى يفرج الله. فرفض أخوته وأبناءه. وقال له زهير بن القين البجلي (والله لوددت أني قُتلت ثم نُشرت ثم قُتلت حتى أقتل كذا ألف قتلة وإن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك)[١٦].

وفي يوم عاشوراء خرج عمر بن سعد فيمن خرج معه وعبأ الحسين (ع) أصحابه وصلى بهم صلاة الغداة، وكان معه اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً، فجعل زهير بن القين البجلي في ميمنة أصحابه[١٧]. وعندما التقى الجمعان خرج زهير بن القين على فرس له شاك السلاح فقال: (يا أهل الكوفة نذار لكم من عذاب الله نذار... إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد (ص) لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية عبيد الله بن زياد... فسَبّوه وأثنَوا على عبيد الله بن زياد...)[١٨].

وفي العاشر من محرم وعندما حمل شمر بن الجوشن على الحسين (ع) (حمل عليه زهير بن القين في رجال من أصحابه عشرة، فشدوا على شمر وأصحابه فكشفهم عن البيوت حتى ارتفعوا عنها)[١٩]. ولما قتل حبيب بن مُظاهر هد ذلك حُسيناً. وقاتل زهير بن القين والحر الرياحي قتالاً شديداً، فكان إذا شد أحدهما فإن استلحم شد الآخر حتى يخلصه، ففعلا ذلك ساعة، ثم قتل الحُر وظل زهير بن القين يقاتل ببسالة وهو يقول:

أنا زهير وأنا ابن القين أذودهم بالسيف عن حسين

وأخذ يضرب على منكب حسين (ع) ويقول:

أقدِم هُديت هادياً مهديّا فاليوم تلقى جدَّك النبيا
وحسناً والمرتضى عليّا وذا الجناحين الفتى الكميا

وأسد الله الشهيد الحيّا

فشد عليه كثير بن عبد الله الشعبي ومهاجر بن أوس فقتلاه[٢٠].

وحاول شمر في أثناء المعركة حرق فسطاط الحسين (ع) فنهاه شبث بن ربعي فما انتهى وذهب لينصرف فحمل عليه زهير بن القين في عشرة فكشفهم عن البيوت[٢١].

إن ما ذكرناه لا يعني أن بجيلة كلها أيدت الحسين (ع) في ثورته، فهناك وحدان من البجليين الذين وقفوا إلى جانب الأمويين منهم عبد الرحمن بن أبي خشكارة البجلي[٢٢].

ولما قتل الحسين (ع) ندم مؤيدوه على ذلك، فاجتمع خمسة منهم في بيت سليمان بن صرد الخزاعي وأسسوا حزب التوابين وتكلم كل واحد منهم، فبدر القوم رفاعة بن شداد البجلي بعد المسيب وقد مدح سليمان بن صرد قائلاً بأنه (شيخ الشيعة وصاحب رسول الله (ص) وذا السابقة والقدم)[٢٣] وعندما أمر سليمان ابن صرد وقرر الخروج قال سليمان لرفاعة بن شداد البجلي أحد مؤسسي حزب التوابين، قم أنت فأحسن تكعبئة الناس،

فإن هذين الرجلين، عبد الله بن يزيد، وإبراهيم بن محمد بن طلحة[٢٤]، قد بعثا من يعرض المساعدة لنا[٢٥]. لاشك أن هذا يدل على أهمية رفاعة البجلي في حركة التوابين ومدى اعتماد سليمان بن صرد عليه.

وعندما توجه التوابون إلى الجزيرة الفراتية وصلوا قرقيسيا وحلوا ضيوفاً على زفر بن الحارث الكلابي المتحصن فيها ضد الأمويين، أمر زفر ابنه أن يسأل عن وجوه أهل عسكر سليمان بن صرد فسمى له كثيرون في مقدمتهم رفاعة بن شداد البجلي[٢٦]. وقبيل معركة عين الوردة ٦٥هـ أوصى سليمان بن صرد إن هو قتل فأمير الناس المسيب بن نجبه فإن أصيب فأميرهم عبد الله بن سعد فإن قتل فأميرهم عبد الله بن وال فإن قتل فأميرهم رفاعة بن شداد البجلي. علماً بأن رفاعة هذا كان أحد القصاص في جيش سليمان بن صرد وكان يحض الناس في الميمنة لا يبرحها. وإذا ما عرفنا أن القصاص في الجيش دورهم كدور ضباط التوجيه المعنوي في الجيش في الوقت الحاضر، اتضح لنا أهمية دور رفاعة في حركة سليمان بن صرد.

وفي أثناء معركة عين الوردة قُتل سليمان بن صرد الخزاعي واثنين من المرشحين للقيادة بعده. وعندما قتل ابن وال المرشح الثالث جاء دور رفاعة بن شداد في قيادة حركة التوابين وجيشهم، فقد أتاه التوابون وقالوا له لتأخذ الراية فقال ارجعوا بنا لعل الله يجمعنا ليوم شرّهم فقال له عبد الله بن عوف بن الأحمر: هلكنا والله لئن انصرفت لِركبنا أكتافنا فلا نبلغ فرسخاً حتى نهلك عن آخرنا وإن نجا منا ناج أخذته الاعراب وأهل القرى يتقربون به إليهم فقتل صبراً. هذه الشمس قد قاربت الغروب فنقاتلهم على خيلنا فإذا غسق الليل وسرنا حتى نصبح على مهل ويحمل الرجل صاحبه وينتظر صاحبه وتسير العشرة والعشرين معاً ويعرف الناس الوجه الذي ياخذون فيتبع فيه بعضهم بعضاً ولو كان الذي ذكرت لم تقف أم على ولدها ولم يعرف رجل وجهه ولا أين يسقط ولا أين يذهب! ولم نصبح إلا ونحن بين مقتول ومأسور. فقال له رفاعة بن شداد (فإنك نعم ما رأيت... ثم أقبل رفاعة على الكناني فقال له أتمسكها أم آخذها منك؟ فقال له الكناني لا أريد ما تريد إني أريد لقاء ربي واللحاق بأخواني والخروج من الدنيا إلى الآخرة وأنت تريد ورق الدنيا وتهوى البقاء وتكره فراق الدنيا... ثم دفع إليه الراية...)[٢٧].

نجح رفاعة بن شداد في الانسحاب بالمتبقين والذهاب بهم إلى قرقيسيا حيث زفر الذي قدم لهم الطعام والعلوفة وعرض عليهم البقاء عنده[٢٨]. وعندما رجع بقية التوابين كل إلى أصله، أهل البصرة إلى البصرة وأهل المدائن إلى المدائن وأهل الكوفة إلى الكوفة فإذا المختار محبوس[٢٩].

كتب المختار وهو في السجن إلى رفاعة بن شداد حين قدم من عين الوردة مرحباً به وبأصحابه لكنه هاجم سليمان بن صرد قائلاً (ولم يكن بصاحبكم الذي به تنصرون، إني أنا الأمير المأمور والأمين المأمون... فأعدوا واستعدوا وأبشروا واستبشروا، أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه... والدفع عن الضعفاء...)[٣٠]. فلما أتى الكتاب رفاعة بن شداد البجلي وأحمر بن شميط الأحمسي البجلي وعبد الله بن شداد البجلي وآخرين وقرأ عليهم. فبعثوا إليه عبد الله بن كامل فقالوا له: (قل له قد قرأنا كتابك ونحن حيث يسرك فإن شئت أن نأتيك حتى نخرجك فعلنا)[٣١].

وعندما خرج المختار من السجن بكفالة صهره عبد الله بن عمر (رض) اختلف إليه الناس واتفقوا على الرضا به. وكان الذي يبايع له الناس وهو في السجن خمسة نفر منهم رفاعة بن شداد البجلي وأحمر بن شميط البجلي وآخرون، وقوى أمره[٣٢]. ثم خاض المختار حرباً ضد والي ابن الزبير، عبد الله ابن المطيع، وأيدته قبائل أحمس البجلية من بين قبائل اليمن ونزل عند منزلهم وسقوه وأصحابه الماء[٣٣]. وكان أحمر بن شميط البجلي من جملة قواد المختار في ثورته في الكوفة سنة ٦٦هـ[٣٤]. وأحمر هذا هو من جملة من حاصر قصر الكوفة الذي كان يقيم فيه والي الكوفة نيابة عن عبد الله بن الزبير، مطيع بن إياس، وكان يحاصر الجهة التي تلي دار عمارة ودار أبي موسى[٣٥]. لقد كان أحمر بن شميط من القواد الذين يعتمد عليهم المختار، إذ كان يسير بين يديه عندما توجه إلى دار عمر بن سعد بن أبي وقاص[٣٦]. وكان أحمر بن شميط قد عبأه المختار في وجه جحار بن أبجر العجلي، وهو من أنصار ابن الزبير[٣٧]، وكان ابن شميط من جملة من حاصر عبد الله بن المطيع والي ابن الزبير في الكوفة[٣٨] وعندما أعلن المختار ثورته في الكوفة كان ابن شميط يسير في شوارع الكوفة ويقول يا لثارات الحسين[٣٩] وقد شهد مع عبد الله بن شداد على أمان المختار لعمر ابن سعد بن أبي وقاص[٤٠].

وعندما سيطر المختار على الكوفة ونصب نفسه حاكماً دون موافقة الأشراف فتأمروا عليه، فاصطدم بهم وقبل الوقعة معهم في ٦٦هـ بعث إليه شبث ابن ربعي ابنه عبد الله المؤمن وتمكن من أن يكيده، ولما اجتمع أهل اليمن بجبانة السبيع حضرت الصلاة فكرة كل رأس من رؤوس أهل اليمن أن يتقدمه صاحبه فقال لهم عبد الرحمن بن مخنف قدموا الرضا فيكم فإن عشيرتكم سيد قراء أهل المصر فليصلي بكم رفاعة بن شداد الفتياني من بجيلة ففعلوا فلم يزل يصلي بهم حتى كانت الوقعة[٤١]. لا شك أن هذا يدل على يمانية بجيلة وأن مقدمهم وقائدهم في مساندة المختار هو رفاعة بن شداد.

وعندما اصطدم مؤيدو المختار من أهل اليمن بأشراف الكوفة، نادى بعضهم يا لثارات عثمان، فقال لهم رفاعة بن شداد ما لنا ولعثمان. لا أقاتل مع قوم يبغون دم عثمان فقال له ناس من قومه جئت بنا وأطعناك حتى إذا رأيت قومنا تأخذهم السيوف قلت انصرفوا ودعوهم...)[٤٢] فعطف عليهم وهو يقول[٤٣]:

أنـــا ابـــن شـــداد علـــى ديـــن علـــي لســـت لعثمـــان بـــن أروى بـــولي
لأصـــلينّ اليـــوم فـــيمن يصـــطلي بحـــرّ نـــار الحـــرب غيـــر مؤتـــل

ويبدو أن رفاعة بن شداد غير رأيه في المختار وخرج بقناعة أخرى عندما رأى كذبه فأراد قتله غيلة فمنعه قول النبي (ص) (من ائتمنه رجل على دمه فقتله فأنا منه بريء)[٤٤]. وعلى كل حال فقد قاتل رفاعة بن شداد مع أهل الكوفة بجانب المختار ضد الأشراف حتى قتل في هذه الحرب عند حمام أعين. وكان ناسكاً[٤٥].

إن ما ذكرناه لا يعني أن بجيلة كلها ساندت المختار؛ فقد روت المصادر أن أفراداً من بجيلة وقفوا ضد المختار منهم عبد الرحمن بن أبي خشكارة البجلي وهو من بين أربعة اقتيدوا إلى المختار لاشتراكهم بقتل الحسين[٤٦] أمر المختار بإخراجهم إلى السوق فضربت أعناق أربعتهم[٤٧]. يضاف إلى ذلك أن بعض بجيلة بقيادة بشير بن جرير بن عبد الله البجلي قد أيدوا أشراف الكوفة وساندوهم في محاربة المختار حيث انضموا إلى عبد الرحمن بن مخنف وهو من الأزد في محاربته للمختار[٤٨]. وكان قبل ذلك قد حاول إقناع أشراف الكوفة بترك المختار يحارب الشاميين ومصعب بن الزبير ولا يصطدموا به. وعندما ألحوا عليه قال لهم: (أنا رجل منكم فإن شئتم فاخرجوا)[٤٩].

وعلى أية حال فقد تمكن المختار من السيطرة على الكوفة ومعاقبة أشرافها بقسوة، وفر قسم منهم إلى البصرة حيث مصعب بن الزبير. قرر مصعب محاربة المختار بعد أن حصل على موافقة قائده المهلب بن أبي صفرة خاصة وأنه تأثر بأشراف الكوفة الذين قالوا له أنهم جاءوا يحملون إليه استغاثة حرائر الكوفيات. استعد المختار لملاقاة مصعب، فخرج أحمر بن شميط فعسكر بحمام أعين. ودعا المختار رؤوس الأرباع الذين كانوا مع ابن الأشتر فبعثهم مع أحمر بن شميط وبعث معه جيشاً كثيفاً، فخرج ابن شميط حتى ورد المذار. وجاء مصعب حتى عسكر قريباً منهم ولم يثبت ابن شميط أمام مصعب فقتل[٥٠]. وقد كانت ميتة ابن شميط مثلاً أعلى للشجاعة والتضحية؛ فعندما أتى المختار خبر هزيمة جيشه ومن قتل به من فرسان أصحابه قال: (ما من الموت بد وما من ميتة أموتها أحب إلي من أموت ميتة ابن شميط)[٥١].

كان قائد مصعب بن الزبير، المهلب بن أبي صفرة، وكان ابن شميط يقود بجيلة، ولما قتل تنادت بجيلة، يا معشر بجيلة وخثعم الصبر الصبر، فناداهم المهلب الفرار الفرار. اليوم أنجى لكم، علام تقتلون أنفسكم[٥٢]. وقد وصف الأعشى حالة بجيلة قائلاً[٥٣]:

ألا هـــل أتـــاك والأنبـــاء تنمـــي بمـــا لاقـــت بجيلـــة بالمـــذار
أتـــيح لهـــم بهـــا ضـــرب طلحـــف وطعـــن صـــائب وجـــه النهـــار
كـــأن ســـحابة صـــعقت علـــيهم فعمـــتهم هنـــاك بالمـــذار

وقد وقف عبد الله بن يزيد القسري إلى جانب عمرو بن سعيد بن العاص بن الأشدق في حركته ضد عبد الملك بن مروان، فقد كان مع يحيى بن سعيد بن العاص حيث دخل المسجد في دمشق وكسر باب المقصورة وقاتل بني مروان، فلما قُتل عمرو بن سعيد وأخرج رأسه إلى الناس، ركب عبد الله وأخوه خالد فلحقوا بالعراق، فأقام مع وُلد سعيد وهم مع مصعب بن الزبير ضد عبد الملك حتى اجتمعت الجماعة على عبد الملك. وقد كانت عين عبد الله بن يزيد فقئت يوم مرج راهط وكان مع ابن الزبير يقاتل بني أمية[٥٤]. وعندما دخل عبد الملك الكوفة سنة ٧١هـ بعد انتصاره على مصعب وفرق العمال، تفرق أنصار مصعب وطلبوا اللجوء وكان عبد الله بن أسد والد خالد القسري قد لجأ إلى عبد الله بن عباس، وكذلك فعل يحيى بن معيوف الهمداني فأمنهم عبد الملك فظهروا[٥٥] ودخل عبد الله بن يزيد القسري على عبد الملك بعد عام الجماعة أي ٧٣هـ فقال عبد الملك كيف أنتم آل يزيد؟ فقال عبد الله: حُرباء، حُرباء، فقال عبد الملك، ذلك بما قدمت أيديكم. وما الله بظلام للعبيد.

وعندما تمرد عبد الرحمن بن الأشعث ضد الخلافة الأموية وتقدم بجيوشه نحو العراق واجتاح البصرة وتقدم نحو الكوفة سنة ٨٣هـ قدم عليه خالد بن جرير بن عبد الله القسري من خراسان في ناس من بعث الكوفة وقاتل عبد الرحمن بن الأشعث جيش الحجاج بن يوسف خمس عشر ليلة أشد قتال حتى قتل زياد بن غنيم القيني وكان على مسالح الحجاج فهده ذلك وأصحابه هداً شديداً[٥٦]. وفي سنة ١٠٠هـ انتخب العباسيون ١٢ نقيباً لدعوتهم في خراسان. وكان أسلم بن سلام البجلي، أحد هؤلاء النقباء[٥٧].

وتعرض آل القسري، وهم من بجيلة، لاضطهاد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، فعندما عزل خالد القسري من ولاية العراق سنة ١٢٠هـ، ثم سجن ابنه يزيد وابن أخيه المنذر بن أسد سار خالد سنة ١٢٦هـ إلى الصائفة وكان على دمشق كلثوم بن عياض، وهو يبغض خالد، فكتب إلى هشام أن موالي خالد يريدون الوثوب على بيت المال وأنهم يحرقون البلد كل ليلة لهذا الفعل، فكتب هشام يأمره بحبس آل خالد الصغير منهم والكبير ومواليهم، فأنفذ وأحضر أولاد خالد وأخوته من الساحل ومعهم مواليهم وحبس بنات خالد والنساء والصبيان. ثم ظهر لهشام أن المسبب للمشاكل هم علي بن العمرس ومن كان معه. ولم يكن لآل خالد أي دخل بالمشاكل. فأمر هشام بإطلاق سراح آل خالد فأطلقهم وترك الموالي رجاء أن يشفع فيهم خالد إذا قدم من الصائفة[٥٨]. وعندما

رجع خالد من الصائفة وسمع ما جرى لعائلته قال (ما لي ولهشام! ليكفن عني هشام أو لأعودن إلى عراقي الهوى شامي الدار حجازي الأصل –يعني محمد بن علي بن عبد الله بن عباس- وقد أذنت لكم أن تبلغوا هشاماً)[٥٩]. فلما بلغه ما قاله قال: خرف أبو الهيثم وفي رواية أخرى أن هشاماً كتب إليه (أنك هذّاءة هُذرة أبجيلة القليلة الذليلة تتهدنني)[٦٠].

ولم ينصر خالداً أحد بيد ولا بلسان إلا رجل من عبس فإنه قال[٦١]:

ألا إن بحـــر الجـــود أصـــبح ســـاجياً أســـير ثقيـــف موثقـــاً فـــي السلاســـل
فـــإن تســـجنوا القســـري لا تســـجنوا اســـمه ولا تســـجنوا معروفـــة فـــي القبائـــل

وظل خالد القسري على قيد الحياة. ثم مات هشام وأوصى بالخلافة لابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي دفع خالداً إلى يوسف بن عمر. فقام يوسف بن عمر بتعذيب خالد حتى مات. ونظم الخليفة الوليد بن يزيد شعراً. فلما سمع من كان بأقطار الشام من اليمانية هذا الشعر أنفوا أنفاً شديداً فاجتمعوا من مدن الشام وساروا نحو الوليد بن يزيد. وبلغ الوليد مسيرهم فأمر بمحمد بن خالد بن عبد الله القسري فحبسه بدمشق. وأقبلت اليمانية حتى دخلت دمشق وأخرجوا محمد بن خالد من محبسه عنوة. وأرسل محمد بن خالد إلى ابن عم الوليد بن يزيد، وهو يزيد بن الوليد بن عبد الملك، فجاء به فبايعوه جميعاً. وأرسل إلى أشراف المضريين فبايعوه طوعاً وكرهاً. وخلعوا الوليد بن يزيد. وأقبل محمد بن خالد إلى قصر الوليد وقتل الوليد[٦٢].

وعندما بويع إبراهيم بن الوليد بالخلافة سنة ١٢٧هـ ورد مروان بن محمد الشام وظفر بإبراهيم فانهزم إسماعيل بن عبد الله القسري إلى الكوفة وافتعل كتاباً على لسان إبراهيم بأمرة الكوفة وجمع اليمانية وأعلمهم ذلك، فأجابوه وامتنع عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والي الكوفة عليه وقاتله فلما رأى الأمر كذلك خاف أن يظهر أمره فيفتضح ويقتل. قال إني أكره سفك الدماء فكفوا إيديكم، وظهر إبراهيم وهرب ووقعت العصبية بين الناس[٦٣] وكان إسماعيل هذا من جملة الذين سجنهم يوسف بن عمر والي العراق، بعد خالد القسري، وكذلك سجن يوسف ابن أخي خالد، المنذر بن أسد[٦٤].

وفي سنة ١٢٧هـ خالف أهل الغوطة وولوا عليهم يزيد بن خالد القسري وحصروا دمشق وأميرها زامل بن عمرو فوجه إليهم مروان بن حمص أبا الورد ابن الكوثر بن زفر بن الحارث وعمرو بن الوضاح في جيش كثيف. وقتل يزيد بن خالد وبعث زامل برأسه إلى مروان بحمص[٦٥]. وكان إسماعيل بن عبد الله القسري قد بايع عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن علي بن أبي طالب (ع) سنة ١٢٧هـ، الذي ثار ضد والي العراق عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والي الكوفة[٦٦].

وعندما دخل مروان بن محمد دمشق هرب محمد بن خالد بن عبد الله القسري نحو العراق حتى أتى الكوفة فنزل في دار عمرو بن عامر البجلي فاستخفى فيها[٦٧] وعندما علم موافاة قحطبة بن شبيب القائد العباس، حلوان، جمع إليه نفراً من أشراف قومه ثم أظهر الدعاء والولاء[٦٨] إلى العباسيين؛ فقد خرج بالكوفة سنة ١٣٢ وسودها على أن يدخلها الحسن بن قحطبة أحد قواد الثورة العباسية وأخرج عنها عامل ابن هبيرة، زياد بن صالح الحارثي، ثم دخلها الحسن. وبينما هو في قصر الكوفة أتاه بعض طلائعه فقال: قد جاءت خيل من أهل الشام فوجه إليهم عدة من مواليه وتهيأ لقتالهم لأنه لم يعرف بأنهم جاءوا مدداً له. فناداهم الشاميون نحن بجيلة وفينا مليح بن خالد البجلي، جئنا لندخل في طاعة الأمير، فدخلوا[٦٩]. وكتب محمد بن خالد من ليلته إلى قحطبة، وهو لا يعلم بهلاكه، يقول له أنه قد ظفر بالكوفة[٧٠]. لاشك في أنّ ذلك يعني أن بجيلة انضمت إلى الحزب العلوي في هذه الحركة. ومما يثير الانتباه أن قوة شامية كبيرة يقودها رجل من آل بحدل قد التحقت بمحمد بن خالد بن عبد الله القسري ودخلت الكوفة لمساندته مما يدل على يمانية بجيلة وميل حزب البحادلة إلى الحزب العلوي بعد أن كانوا من أشد أعدائه في عهد معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد وفي عهد مروان بن الحكم[٧١].

وعلى الرغم من سوء أثر مروان بن محمد في بني بجيلة ومعاداته إياهم وتحامله عليهم، فقد كان إسماعيل بن عبد الله القسري أخو خالد القسري من أخص الناس عند مروان بن محمد. فعندما ضايقه الجيش العباسي تحول إلى الجزيرة ودعا إسماعيل بن عبد الله القسري وقال له (أجمعت على أن أرحل بأهلي، وولدي، وخاصة أهل بيتي، ومن اتبعني من أصحابي حتى أقطع الدرب، وأسير إلى ملك الروم فاستوثق منه الأمان ولا يزال يأتيني الخائف من أهلي وجنودي حتى يُكثف أمري وأصيب قوة في محاربة عدوي) قال إسماعيل وذلك والله كان الرأي له عندي (غير أني ذكرت سوء أثره في قومي ومعاداته إياهم وتحامله عليهم فصرفت الرأي عنه وقلت له يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن تحكم أهل الشرك في نفسك وحُرَمك لأن الروم لا وفاء لهم) قال فما الرأي عندك؟ قلت: (الرأي أن تقطع الفرات وتستقري مدن الشام، مدينة مدينة فإن لك بكل مدينة صنائع ونصحاء وتضمّهم جميعاً إليك، وتسير حتى تنزل بلاد مصر فهي أكثر أهل الأرض مالاً وخيلاً ورجالاً فتجعل الشام أمامك وأفريقية خلفك. فإن رأيت ما تحب انصرفت إلى الشام وإن تكن الأخرى اتسع لك الهرب نحو أفريقية... قال صدقت لعمري...)[٧٢]

وبعد هزيمة مروان بن محمد أمام العباسيين، تحصن ابن هبيرة بواسط. وحاصره العباسيون، فلما طال عليه الحصار ولم يطلب الصلح حتى جاءه إسماعيل بن عبد الله القسري بخبر مقتل مروان وحثه وحث

جنده على طلب الصلح قائلاً لهم (علام تقتلون أنفسكم وقد قتل مروان؟...)[٧٣]. وروى أبو حنيفة الدنيوري أن محمد بن خالد بن عبد الله القسري نادى من كان مع ابن هبيرة من قومه (تباً لكم، أنسيتم قتل أبي خالد، وتحامل بني أمية عليكم ومنعهم إياكم أعطياتكم؟ يا بني عم، قد أزال الله ملك بني أمية، وأدال منهم، فانضمّوا إلى ابن عمكم. فإن هذا قحطبة بحلوان في جموع أهل خراسان، وقد قتل مروان، فلم تقتلون أنفسكم؟ وأن الأمير قحطبة قد ولاني الكوفة، وهذا عهدي عليها، فليكن لكم أثر في هذه الدولة)[٧٤].

وقد شغل بعض رجالات بجيلة مناصب إدارية كبرى في الدولة الأموية منهم خالد بن عبد الله القسري الذي تولى العراق والمشرق مدة ١٥ سنة (من ١٠٥هـ-١٢٠هـ) وأخيه أسد الذي تولى خراسان لمدة ١٤ سنة (من ١٠٦هـ-١٢٠هـ). أتمنى أن يتصدى الباحثون لدراسة ولاية كل من هذين الواليين.

وعلى كل حال فإن البجليين قد أخذوا دورهم في الحرب الأهلية بشكل فعال ومؤثر سواء أكانوا معارضين للخلافة الأموية أم مؤيدين لها. وكان المؤيدون قلة ليس لها قيمة ومع ذلك فقد أخذوا نصيبهم من الأحداث، خيرها وشرها.

وكانت الروابط القبلية بين البجليين أقوى من الاختلافات السياسية التي تصارعت في الفترة المعنية بالدراسة؛ فقد دافع البجليون في بلاط معاوية وهم أنصاره عن البجليين أنصار العلويين وشفعوا لهم في البلاط الأموي.

وكان هناك جهد متعمد يرمي إلى التقليل من دور القبائل اليمانية في تحرير العراق والمشرق. ولذا فقد بدأت بجيلة تشعر بالحيف والظلم فسخطت على الخلافة الراشدة والخلافة الأموية وانضمت وتعاونت بشكل واضح مع الأحزاب والحركات المعارضة لهذا الخليفة أو ذاك.

المصادر والمراجع والهوامش

(١) الطبري، تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٥ (القاهرة ١٩٦٤) ص٢٦٥.
(٢) المصدر نفسه والجزء، ص٢٦٤؛ ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، جـ٣ (بيروت لا.ت) ص١٢.
(٣) الطبري، المصدر السابق، جـ٥ ص٢٧٢.
(٤) المصدر نفسه والجزء، ص٢٧٤؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٣ ص١٢.
(٥) الطبري، المصدر السابق، جـ٥ ص٢٧٤.
(٦) الطبري، المصدر السابق، جـ٥ ص٢٧٨.
(٧) المصدر نفسه والجزء، ص٢٧٤.
(٨) المصدر نفسه، جـ٤ ص٣٦٨، ٥٦٩.
(٩) المصدر نفسه، جـ٥ ص٣٥٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ٤ (بيروت ١٩٦٥) ص٢٠؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٣ ص٢٢.
(١٠) الطبري، المصدر السابق، جـ٥ ص٣٩٦؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٤ ص٤٢.
(١١) الطبري، المصدر السابق، جـ٥ ص٣٩٦؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٤ ص٤٢.
(١٢) الطبري، المصدر السابق، جـ٥ ص٤٠٤.
(١٣) المصدر نفسه والجزء، ص٤٠٩؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٤ ص٥٢.
(١٤) المصدر نفسه والجزء، ص٥٦-٥٧.
(١٥) الطبري، المصدر السابق، جـ٥ ص٤١٦-٤١٧.
(١٦) المصدر نفسه والجزء، ص٤١٩-٤٢٠.
(١٧) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٤ ص٥٩.
(١٨) الطبري، المصدر السابق، جـ٥ ص٤٢٦؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٤ ص٦٣.
(١٩) الطبري، المصدر السابق، جـ٥ ص٤٣٨-٤٣٩.
(٢٠) المصدر نفسه، جـ٥ ص٤٤١؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٤ ص٧١.
(٢١) المصدر نفسه، جـ٤ ص٦٩-٧٠.
(٢٢) الطبري، المصدر السابق، جـ٥ ص٤٣٦؛ النويري، نهاية الإرب في فنون الأدب، جـ٢٠ (القاهرة ١٩٧٥) ص٥٢٨-٥٢٩.
(٢٣) الطبري، المصدر السابق، جـ٥ ص٥٥٢؛ البلاذري، أنساب الأشراف، جـ٥ (القدس ١٩٣٦) ص٢٠٤-٢٠٥.
(٢٤) أمراء الكوفة نيابة عن عبد الله بن الزبير الثائر في مكة المكرمة.
(٢٥) الطبري، المصدر السابق، جـ٥ ص٥٧٨.
(٢٦) المصدر نفسه والجزء، ص٥٩٤؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٤ ص١٨١.
(٢٧) الطبري، المصدر السابق، جـ٥ ص٦٠٣-٦٠٤؛ البلاذري، المصدر السابق، جـ٥ ص٢١٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٤ ص١٨٤-١٨٥؛ النويري، المصدر السابق، جـ٢٠ ص٥٣٩.
(٢٨) الطبري، المصدر السابق، جـ٥ ص٦٠٥.
(٢٩) المصدر نفسه والجزء، ص٦٠٥؛ ابن الاثير، المصدر السابق، جـ٤ ص١٨٥.
(٣٠) الطبري، المصدر السابق، جـ٥ ص٦٠٦؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٤ ص١٨٦؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٣ ص٢٥.
(٣١) الطبري، المصدر السابق، جـ٦ ص٨؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٤ ص٢١١.
(٣٢) الطبري، المصدر السابق، جـ٦ ص٩.
(٣٣) المصدر نفسه والجزء، ص٢٨؛ البلاذري، المصدر السابق، جـ٥ ص٢٧٢؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٤ ص٢٢٣؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٣ ص٢٥.
(٣٤) الطبري، المصدر السابق، جـ٦ ص٢٢.
(٣٥) المصدر نفسه والجزء، ص٣٠.
(٣٦) المصدر نفسه والجزء، ص٤٧.
(٣٧) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٤ ص٢١٩.
(٣٨) المصدر نفسه والجزء ص٢٢٥؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٣ ص٢٥.
(٣٩) الطبري، المصدر السابق، جـ٦ ص٥٠.
(٤٠) المصدر نفسه والجزء والصفحة.
(٤١) الطبري، المصدر السابق، جـ٦ ص٤٩-٥٠؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٤ ص٢٣٣.
(٤٢) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٤ ص٢٣٤.
(٤٣) المصدر نفسه والجزء، ص٢٣٥.
(٤٤) المصدر نفسه والجزء والصفحة.
(٤٥) الطبري، المصدر السابق، جـ٦ ص٥٠.
(٤٦) المصدر نفسه، جـ٥ ص٤٣٦؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٣ ص٢٥.
(٤٧) الطبري، المصدر السابق، جـ٦ ص٥٨، والثلاثة الآخرون هم: زياد بن مالك، عمران بن خالد، عبد الله بن قيس.

[٤٨] الطبري، المصدر السابق، جـ٦ ص٤٥؛ أبو حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال (القاهرة ١٩٦٠) ص٢٩٩.
[٤٩] الطبري، المصدر السابق، جـ٦ ص٤٥.
[٥٠] ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٤ ص٢٦٩؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٣ ص٢٩-٣٠.
[٥١] ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٤ ص٢٧٠.
[٥٢] المصدر نفسه والجزء، ص٢٧٧؛ الطبري، المصدر السابق، جـ٦ ص٩٥، ٩٨؛ النويري، المصدر السابق، جـ٢١ ص٤٦.
[٥٣] الطبري، المصدر السابق، جـ٦ ص٩٧.
[٥٤] المصدر نفسه والجزء، ص١٤٧.
[٥٥] المصدر نفسه والجزء، ص١٦٤؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٤ ص٣٣١؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٣ ص٣٤.
[٥٦] الطبري، المصدر السابق، جـ٦ ص٣٣٦؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٤ ص٤٨٢.
[٥٧] مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية (بيروت ١٩٧١) ص٢١٤.
[٥٨] ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٥ ص٢٧٦؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٣ ص٩٦-٩٧؛ وانظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، جـ٢ (بيروت لا.ت) ص٢٢٩.
[٥٩] الطبري، المصدر السابق، جـ٧ ص٢٥٦؛ أبو حنيفة الدينوري، المصدر السابق، ص٣٤٥.
[٦٠] الطبري، المصدر السابق، جـ٧ ص٢٥٦؛ وانظر بنفس المعنى أبو حنيفة الدينوري، المصدر السابق، ص٣٤٥.
[٦١] الطبري، المصدر السابق، جـ٧ ص٢٥٧؛ وانظر أبو حنيفة الدينوري، المصدر السابق، ص٣٤٧.
[٦٢] أبو حنيفة الدينوري، المصدر السابق، ص٣٤٩؛ ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، جـ٢ (القاهرة ١٩٦٣) ص١٣٤-١٣٦؛ اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ٢ (بيروت ١٩٦٢) ص٣٣٣.
[٦٣] الطبري، المصدر السابق، جـ٧ ص٣٠١-٣٠٢؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٥ ص٣٢٤-٣٢٥.
[٦٤] ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٥ ص٢٧٦.
[٦٥] الطبري، المصدر السابق، جـ٧ ص٣١٣؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٥ ص٣٢٩.
[٦٦] المصدر نفسه والجزء، ص٣٢٤.
[٦٧] أبو حنيفة الدينوري، المصدر السابق، ص٣٥١.
[٦٨] المصدر نفسه، ص٣٦٧.
[٦٩] المصدر نفسه، ص٣٦٧؛ الطبري، المصدر السابق، جـ٧ ص٤١٧؛ ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٥ ص٤٠٤-٤٠٥؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٣ ص١٢٧-١٢٨؛ اليعقوبي، المصدر السابق، جـ٢ ص٣٤٥.
[٧٠] الطبري، المصدر السابق، جـ٧ ص٤١٨.
[٧١] أبو حنيفة الدينوري، المصدر السابق، ص٣٦٧؛ علي جاسم صكبان، دراسات في التاريخ العربي (موصل ١٩٨٥) ص٧٣-٩٤، ٩٥-١٣٠.
[٧٢] أبو حنيفة الدينوري، المصدر السابق، ص٣٦٥-٣٦٦؛ بنفس المعنى راجع ابن قتيبة الدينوري، المصدر السابق، جـ٢ ص١٤٠-١٤١.
[٧٣] ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٥ ص٤٤٠؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جـ٣ ص١٧٥.
[٧٤] المصدر السابق، ص٣٩٨.

The role of Bajila tribe in the Umayyad period.

Prof. Dr. Jassim Sagban Ali
Education college for women

The Bajilian had their important part in the first civilian war between Muslims. Whether they were against the Umayyad caliphate or with it, who were small in number, but they had their important part in that actions.

The Bajilian who were against the umayyad caliphate had an important role in the fall of Umayyad monarchy.

The tribe connections between the bajilians were stronger than their political differences, which had influnces in that time. The bajilians who were in muawiya palace were a good diffencer for the bajilian who were in the side of the caliph ali. They managed to be their medicater in the muawiya palace.

There were big efforts giving by others inorder to decrease the bajilian efforts in conquering iraq and the east. That made bajilia realizing that the caliphate treated them injustly, that made the bajilian feeling angry against the rightly guided caliphs and the umayyad caliphate that made this tribe to be with the opposition partys against the caliphs.